

اللغة العربية وآثار القرآن في تطورها

الأستاذ الفاروق محمد علي

عميد كلية اللغة العربية
(جامعة اليرموك)

المستوى الثقافي والحضاري للامة - وتتطور اما الى الحياة واما الى الممات ، واما الى ما بينهما - والبحث عن حياتها او موتها او فتورها كالبعث من عوارض الكائنات كلها - يرجع الى الكشف عن مقوماتها ، وطوارئها ، ومدى استمدادها لما يطلب منها .

ثم ان عناصر حياة اللغة تتكون من عدة اصول :

- (1) الاشتقاق والقياس .
- (2) وقابلية التطور وصلاحيه الاداء .
- (3) ومرونة الاسلوب وحلاوة المنطق .
- (4) ووفرة المادة ونماء الثروة .
- (5) ونصاحة اللفظ وبلاغة الكلام .

اما الاصل الاول فهو في اللغة العربية اجلى مظاهرها ، وسر من اسرار تفوقها وبه كانت احق واجدر بالحياة والبقاء لباب الاشتقاق والقياس واسع في هذه اللغة لا يضيق مهما اتسع مجال العقل وخياله ومثال لذلك المصدر والصفة فلهما في اللغة العربية العدد العديد من الصيغ والابنية واذا لاحظنا ذلك في

قرر علماء اللغة والاجتماع قديما وحديثا - ان القصد من وجود اللغة هو التعبير عما يختلج في الضمير من المعاني والاهراض - وان اقرب طريق وابسر وسيلة الى ذلك هو الالفاظ والاصوات التي لا تكاد تتفاوت في الوصول الى هذه الغاية وان كانت تختلف في افعالها حقها اختلافا كثيرا - وان الوضع اللغوي كان من لطف الله بعباده ليتسنى لهم التفاهم والتعاون لان الانسان لا يمكنه ان يستقل بحياته ولا ان يعيش بانفراده كما ان ذلك اوفق لغرض الدال اذا كان لا يريد اطلاع غير المخاطب على مدلولها ، حيث انها توجد عند الحاجة وتنقضي بانقضائها - وان معاني الحياة اكثر من ان يعبر عنها فكل لفظ معنى وليس لكل معنى لفظ .

واللغة العربية من بين اخواتها اللغات السامية حباها الله عذوبة اللفظ وجمال الاسلوب وحرارة المادة وامدها بقوة الدفاع عن حياتها واستقلالها لما تتوفر عليه من عوامل التطور وعناصر البقاء ، وهي ككائن من الكائنات الحية ، وكمظهر من مظاهر السلوك ، وكظاهرة من ظواهر النشاط تخضع الى سنة التطور وعوامل الزمان والمكان فتتأثر بذلك على حسب

الافعال ومزاداتها تصاعدت الصور القياسية الى حد لا نظير له في اللغات الاخرى فالقياس والاشتقاق يجعلان اللغة العربية فنية لوية ، ويفتحان الباب على مصراحيه امام الكتاب والشعراء لتسجيل افكارهم وابراز مواهبهم واذا تجلت قيمة هذا الاصل الى هذا الحد لم يبق شك في فضل براعتها ونمو حركتها، واما الاصل الثاني وهو قبول اللغة للتطور وصلاحياتها للاداء فهو في اللغة العربية بمكان لا يستطيع انكاره .

كانت تستعمل في افراض بسيطة مثل التخاطب والعواطف ، والشارات والمواقف وشبه ذلك مما يتناسب وحياء البداوة وقامت بما طلب منها في هذا الشأن خير قيام وبعد ما خفقت راية الاسلام ولبثت حجته اصبحت اللغة لغة دين وحكم وقصص وسياسة واساليب واحتجاجات فوسعت لغة العرب كل ذلك ولم تضيق به ذرعا كما قال شاعر النيل حافظ ابراهيم رحمه الله في تمجيدها على لسان حالها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وما ضقت عن ابي به وعظات

كيف اضيق اليوم من وصفالة

وتنسيق اسماء لمخترعات

انا البحر في احشائه الدر كامن

فهل سالوا الغواص من مدفاتي

ثم استعملت في افراض جديدة اقتضاها الانغماس في الترف والامعان في الحضارة كوصف القصور وما بها من الاثاث والرياش والعمران، وكنتع البساتين وما بها من الاشجار والازهار والالوان الى غير ذلك مما يلائم انظمة الملك واساليب الحضارة التي استدهاها التقدم الفكري والاجتماعي ، ثم كانت لغة علم وادب وتاليف وترجمة فلم يضيق صدرها ولم يقصر لسانها عما طلب منها في مصطلحات الطب والصيدلة ، والحكمة والفلسفة ، والفلك والهيئة ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، واما الثالث وهو مرونة الاسلوب اي قبولها للابتكار والتجديد في صوغ المعاني وتقلبات اوضاعها فلها فيه الحظ الاوفر والمقام الاول اذ كانت اللغة في عهدها الاول عادية وبسيطة كبساطة معانيها لا تكاد تخرج من الحقيقة فيرسل المتكلم كلامه على حسب مقتضى الحال بدون تكلف ولا تعمل لا في الفاظها ولا في معانيها فاذا هي في صدر

الاسلام وما بعده من العصور تتراعى في لباس انيق وفي صور زاهية تترقى في البلاغة وتنوع في المجاز والتشبيه مما زادها حلاوة في النفس ولذاذة في الطبع - وذلك شيء ظاهر في اساليب الخطباء والشعراء والكتاب الاسلاميين الذين انفسح المجال امامهم ، بما هيأته لغة التنزيل من افاق جديدة في اللغة وفي المعرفة - ولا يغيب عن الاذهان ان للقرءان العظيم اثرا قويا وتيارا سريعا في نشر اللغة العربية ورفع مقامها وتوفية كلماتها اذ جاء بما لا عهد للعرب به من كلمات كالساعة والسكينة مثلا فان العرب كانت لا تعرف من الساعة سوى الحصة من الزمان ولا تعرف الساعة بمعنى القيامة كما انها لا تعرف السكينة بمعنى الوقار والطمأنينة ، ويقول ابن فارس في فقه اللغة ان العرب « كانت في جاهليتها على اثر من اثر وابائهم في لغاتهم وادابهم ونسائلهم وقرابينهم فلما جاء الله تعالى بالاسلام حالت احوال ونسخت ديانات ، وابطلت امور ونقلت الفاظ من مواضع الى مواضع اخرى بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فكان مما جاء في الاسلام ذكر المومن والمسلم والكافر والمنافق ، والعرب انما عرفت المومن من الايمان والايمان هو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط واوصافا بهما سمي المومن بالاطلاق مومنا وكذلك الاسلام والمسلم انما عرفت منه اسلام الشيء ثم جاء في الشرع من اوصافه ما جاء وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الفطشاء والستر . فاما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم ابطنوا خلاف ما اظهروا وكان الاصل من نافقاء اليربوع - ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها وجاء الشرع بان الفسق الانحاش في الخروج من طاعة الله - وكذلك الصيام اصله عندهم الامسالة ثم زادت الشريعة النية وحظرت الاكل والمباشرة وغيرهما من شرائع الصوم وكذلك الحج لم يكن فيه عندهم الا القصد ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشماله وكذلك العمرة لم تكن العرب تعرفها الا من ناحية البناء وزاد الشرع فيها ما زاده وعلى هذا سائر ابواب الفقه فالوجه في هذا اذا سئل الانسان منه ان يقول فيه انسان لغوي وشرعي ويذكر ما كانت العرب تعرفه ثم ما جاء الاسلام به وكذلك سائر العليوم كالنحو

عربية حيث تكلمت بها العرب وحولتها من أصلها وأخضعتها لنفوذ حكمها إلا ترى أنها لا تدمج على لفظه الذي كان عليه عند العجم إلا إذا كانت حروفه في المخارج والصفات كحروف العرب .

وذلك مثل تنور وصابون فإنه اتفقت فيهما اللغة العربية واللغة العجمية وعند ذلك يكون منسوباً إلى العرب لا إلى العجم أما إذا لم تكن حروفه كحروف العرب أو كان بعضها كذلك دون بعض فلا بد لها أن تردّها إلى حروفها ولا تقبلها على مطابقة حروف العجم - ومن أوزان الكلم ما تتركه على حاله في كلام العجم ، ومنها ما تتصرف فيه كما تتصرف في كلامها وإذا فعلت ذلك صارت تلك الكلم مضمومة إلى كلامها كالألفاظ المرتجلة والأوزان المبتدأة بها .

ومما يضمن سعة اللغة العربية كثرة المترادفات وهو ما يمين الكاتب المولع بالبديع على شجوه وجناسه وفواصله ، والشاعر المرتبط بميزاته وقافيته وموازنه فوجود المترادفات في اللغة العربية يتوافق مع طبيعتها في السحر والإبداع .

وهامي كتب لغة اللغة تكفلت بضبط مسميات الألفاظ ومواقع استعمالها وما بين معانيها من الفروق وإن قلت ودقت فإذا أحكم الكاتب أو الشاعر استعمالها كان مصوراً للمقاصد والمطالب بكل دقة وبكل وضوح .

وأما الأصل الخامس وهو فصاحة اللفظ وبلاغة التركيب فقد بلغت فيه العربية المقام الأمثل وقد تجمعت هذه الصفات في مضر ، وانحصرت في قریش ، وتلخصت في النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم كما روى عنه أنه قال : « أنا أفصح من نطق بالفساد بيد أبي من قریش ونشأت في بني سعد » . ومن بلاغته صلى الله عليه وسلم أنه تكلم بما لم يسمع من العرب قبله كقوله « مات حتف أنفه » - « وحي الوطيس » - « ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » - إلى غير ذلك مما سجله الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين » .

لهذه هي أصول حياة اللغة وبقائها ولا نشك في توفر لغة الأمراء والبيان على هذه العناصر وأنها لم تزل كما كانت لغة العلم والثقافة ، لا تتأخر عن مسيرة ركب الحضارة بشرط أن يعمل أهلها على

والمروض والشعر كل ذلك له اسمان لغوي وصناعي» وقد أصبح كل هذا بحكم القردان من الألفاظ المستحدثة في العربية بالإضافة إلى ما كان جارياً عندهم ودأجاً بينهم ويرجع الفضل إلى القردان الكريم في إرشاد أهلها إلى العناية بها لما حازته من أسباب القوة ، والرقى ، والحيوية ، قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ، « أنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ، « وكذلك أنزلناه حكما عربيا » ، بل هو أعظم ضمان لصيانتها من الضياع وحمايتها من الفساد فهو ديوانها الجامع ودستورها المانع ، ولذلك نعتقد أن الحق والصواب مع من حث ويحث على حفظ القرآن الكريم صونا لأدبها وعونا عليها لطلابها وقديما قالوا القردان قاموس من لا قاموس له وسند من لا سند له .

ومن هنا كان لقوة الدولة العربية الإسلامية التي ركزت حياتها على كتاب الله عز وجل أثر كبير في صقل اللغة واستثمارها والتوسع في دلالتها وأساليبها لاسيما إذا كثرت الحاجات والمحسوسات وتجددت الوسائل والأدوات فإن ذلك يساعد على ترقيتها وتوسيع كلماتها ، وما زال الكتاب المصريون بطلانها كل حين بأسلوب جديد وابتكار لريد وذلك ما يشهد على قدرة اللغة ومرونتها واستعدادها .

وأما الرابع وهو وفرة المادة فهو شيء لا تلام عليه اللغة العربية بل وربما شكها أهلها من كثرة مفرداتها وصعوبة الإحاطة بها وهذه معاجمها تهديك إلى الحق في هذا الباب فلسان العرب لابن منظور الأفرقي بنطوي وحده على ما يقارب ستين ألف مادة وإذا اعتبرت أن كل مادة يدخلها الاشتقاق وما يتفرع عليه أدركت أن جملة مفردات اللغة لا تكاد تدخل تحت الإحصاء وبذلك استطاعت لغة العرب أن تقوم بنفسها وتستقل من غيرها مما حسدتا عليه كثير من اللغات الناهضة - ولا عار في وجود الدخيل من اللغات الأعجمية فإن ذلك لا ينقصها شيئا من استقلالها لأن مقومات اللغة المكونة لجهازها تامة وقائمة - ولأن اللغات يأخذ بعضها من بعض كما يأخذ الإنسان من الإنسان وهذا شأن الكائنات يرتفق بعضها ببعض ، إلا أن نسبة الأخذ قد ترتفع وقد تنخفض - ولأن الكلمات الدخيلة أقلية ولا اعتبار للأقلية مع الأكثرية - ولأن هذه الألفاظ أصبحت

نموذج جديد تطورت العربية فيه فكانت خليفة ان تكون عربية من دين جديد هو في الحقيقة حضارة جديدة ومن الطبيعي ان تتطلب هذه الحضارة الطريفة مادة لغوية جديدة تسمى اللغة الاسلامية او الالفاظ الاسلامية - ومن اجل ذلك وجد الباحثون انفسهم في حاجة الى وضع مؤلفات تشرح هذه اللغة الجديدة فكانت هي الكتب التي تحمل عنوان مجال القردان ، او غريب القردان ، او مشكل القردان ، او تشبيهات القردان ، او معاني القردان ، فمثلا الفاظ الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والغرض والسنة والصدقة والنافلة والحديث وغير ذلك مما يدخل في نطاق اللغة الجديدة - دلت على معان جديدة في هذه الفترة التاريخية من تاريخ اللغة العربية .

ولغة القردان والحديث طبعت اللغة العربية بطابع واضح مبين هو التزامها الاحراب الذي لم يكن شائعا ولا مستعملا على نحو ما التزمته نصوص القردان ومعنى ذلك ان العربية في لهجاتها المتعددة لم تكن تنقيد بضوابط الاحراب ولكن لغة التنزيل هي التي جعلت الاحراب سمة لازمة للعربية التي اريد لها ان تكون كذلك - وعلى هذا فلم يدخل عصر من مصور التاريخ اللغوي من ازدواجية في اللغة - لغة نصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ، ولغة هامية تستعمل في التخاطب والتفاهم ، وربما تعدى الامر فيها مسألة الاحراب الى الالفاظ نفسها حيث تكون بعيدة عن الالفاظ الصحيحة - وعذر العرب انهم كانوا يتأخمون اقواما في اطراف الجزيرة العربية فاعدهم ذلك وغير لسانهم وحرف كلامهم - واعتبارا لذلك يمكن ان تكون صيغ الجموع وغيرها راجعة الى اختلاف اللهجات الخاصة اذا كانت قريبة من اللغة الاصلية .

وعلى اي حال فاللهجات العديدة ، والاستعمالات الجديدة التي لا يعترف بها علماء العربية ما هي الا نتيجة للتطور الطبيعي في اللغة واستمرار لحياتها من حيث انها فرضت نفسها فرضا وجمعت حولها جموعا من الناس .

ومن الاستعمالات الجديدة ما روي ان احد الظرفاء جاء الى ابي تمام الشامي المشهور وساله ان يعطيه قارورة من ماء الملام حيث انكروا عليه قوله :

لا تسقني ماء الملام فانني
صب قد استعذبت ماء بكالي

ضمان وجودها في حياتهم ، ونقولها في عالمهم ، وكما يلد لي ان « اورد قصة طريفة اوردها ابن الاثير في المثل السائر قال : « وحضر عندي في بعض الايام رجل من اليهود وكنت في الديار المصرية ، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد لمكان علمه في دينهم وفي غيره وكان كذلك فجرى ذكر اللغات وان اللغة العربية هي سيدة اللغات وانها اشرفهن مكانا واحسنهن وضعافقال ذلك الرجل : « كيف لا تكون كذلك وقد جاءت اخرا فنفت التبيح من اللغات قبلها واخذت الحسن ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة فاختصر ما اختصر وخفف ما خفف فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني - كوميل - مما لا على وزن فوعيل فجاء واضع العربية وحذف منها الثقل المستبشع وقال جمل نصار خفيفا حسنا وكذلك فعل في كذا وكذا ... »

الا ان نفسي حدثني ان هذا الكلام اساء الى العربية اكثر مما احسن اليها لان اليهود لا يمكنهم ان يتجردوا عن سمومهم واحقادهم في كل ما يمت الى الاسلام والمسلمين بصلة وقد اكده الله لنا ذلك في كتابه الحكيم « لتجدن اشد الناس عداوة للذين امنوا اليهود والذين اشركوا » وهذه الاساءة تتجلى في ثلاثة مواضع - الاول قوله : « كيف لا تكون كذلك وقد جاءت اخرا » والثاني قوله : « ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة » والثالث قوله : « فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني - كوميل - الخ ووجه ذلك انه يشير الى انها تولدت من غيرها وانها مأخوذة من اللغات العبرية على الخصوص مع ان اللغة العربية عند المحققين هي شقيقة اللغات السامية وليست متولدة من شيء منها لا كما يزعم بعضهم انها بنت اللغة العبرية والبيئة على انها اصل بنفسها - انها اقرب اللغات السامية شيئا باصلها حسبما اثبتت الباحثون في نشأة اللغة الاولى وما تفرع عنها من لغات - وانها عاشت في نواحي منزلة من بقية اللغات السامية وبذلك يصر اتصالها بها بصلة الاشتقاق والتفريع .

فاللغة العربية في غنى عن شهادة اليهود - اذ هي اوضح وسيلة للتمييز من الاغراض واقدر على تصوير الحقائق وتحليل الغوامض ، واوسع من ان تضيق من موضوع او محسوس - وهي لغة التنزيل الذي يعتبر حدا عظيما في تاريخ اللغة العربية لانه

فى تأليفه هو التشبيه القائم فى قول امرئ القيس
أيقظنى والمشرنى مضاجعى
ومسنونة زرق كانياب الموالم

هل المشبه به معلوم او مجهول - وهذا الكتاب
يفسر ما فى الآيات الكريمة من مواد غريبة ، ويبين
وجوه نظم القراءان التى يوجد مثلها فى كلام العرب،
ويتضمن كثيرا من مسائل البلاغة كالتشبيه
والاستعارة والكنابة ، والتقديم والتأخير والإيجاز
والإلتفات ، ورتبه صاحبه على حسب ترتيب سور
القراءان وهآياته ليسهل تناوله ويعم نفعه ان شاء
الله - وكتاب «غريب القراءان» او «مشكل القراءان» لآبى
محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة
213 هـ ورتبه كترتيب آبى عبيدة ، واعتمد فيه على
كتاب آبى عبيدة وعلى غيره ممن سلك هذا المسلك
والمراد انه اخذ من ذلك اخذ الناقد البصير الذى
يمرف ما باخذ وما يذر ولذلك تراه مرة ينتقد نقدا
لاذما واخرى نقدا هادئا - وكتاب «تلخيص البيان»
فى مجازات القراءان ، لآبى الحسن محمد بن آبى
الحسن المعروف بالشريف الرضى ، المتوفى
سنة 406 هـ بين فيه ما فى القراءان من
استعمالات مجازية ونهج منهج آبى عبيدة فى الوضع
والتقرير - وكتاب آبى القاسم عبد الله بن نايقا
البغدادى المتوفى 485 هـ الذى خلق فى اجواء
الفناء ، واضفى على التشبيهات القراءانية أنوارا
جديدة وقدم معلومات وافادات طريفة فحق له ان
يكون مرجعا فى الدراسات القراءانية والبحوث
البلاغية والاسرار اللغوية - وكتاب «الإيجاز فى انواع
المجاز لآبى محمد سلطان العلماء حر الدين بن عبيد
السلام الشافعى المتوفى سنة 660 هـ بداه
بمعلومات قيمة عن المجاز والبلاغة ورتبه على سور
القراءان الكريم وختمه بطرائف وفرائد .

فقال له ابو تمام لا اعطيك ما سالت حتى
تاتينى بريشة من جناح الدل وهو يشير فى جوابه
اللطيف الى قوله تعالى فى الوصبة بالوالدين :
« واخفض لهما جناح الدل من الرحمة » وهو يريد
ان يقول ان لاستعمالات المجاز فى العربية الوانا من
الإبداع والابتكار فكما ان لغة التنزيل ابتكرت
المجازات الدقيقة اللطيفة ، فصارت من أنفس نفائس
العربية ، كذلك يكون من حق الشاعر المبدع ان
يبتكر فى استعمال المجاز .

ولا ننسى ان المجاز قام بدور كبير فى تطور
اللغة وفى مسألة الدلالة ، والمجاز واقع فى كل زمان،
وقائم بكل لسان، والكلمة خاضعة للتغير بحكم الطبيعة،
وبحكم الشريعة .

وبعد فقد علمنا - ان انتشار الاسلام كان من
اقوى العوامل فى انتشار اللغة العربية اذ هي لسانه
واداته - ومن مادة الناس انهم يتسارعون الى تعلم
لغة الغالب لكي يضمنوا لانفسهم تقريبا من الدولة
الغالبة فيتسمنون المراكز ، ويترسومون المناصب
وذلك شأن المفلوب مع الغالب فلفة الفاتح تنتصر
عندما ينتصر وتستقر عندما يستقر واما ان على ذلك
هنا ما فى تعاليم الاسلام من التسامح واقامة
ميزان الحق والعدل ، فاقبل الناس على الاسلام وعلى
لغته وسار الاسلام وسارت اللغة معه قدما بقدم -
وقد اثر القراءان الكريم تأثيرا عظيما فى اللغة والبلاغة،
وكان باعثا قويا على تدوين اصولها وقواعدها ،
وسائر علومها .

ومن الكتب التى عنيت بدراسة لغة القراءان
واساليه كتاب «مجاز القراءان» لآبى عبيدة معمر ابن
المثنى اللغوى المتوفى سنة 208 هـ وقد كان السبب